بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لسنا فى حاجة الى بيان الدور الذى لعبته اللغة العربية فى العصر الجاهلى كأداة للتخاطب وكمصهر لصقل التعابير عن أدق الاحساسات وأرق العواطف اذ يكفى أن تراجع موسوعات اللغة لنلمس ذلك الثراء الذى عز نظيره فى معظم لغات العالم ولعل من مظاهر هذا الثراء تدرس حق الدرس الى الآن وتنطوى على كنوز تكشف من القوة الى الضعف من خلال شتى الاعتبارات وكذلك تدرج الاسماء لنفس المسميات فى مئات التعابير تبعا لادق مجالى الميز ولا تزال هذه الموسوعات اللغوية لم تدرس حق الدرس الى الآن وتنطوى على كنوز تكشف المجامع اللغوية مع الايام عن مدى ارتباطها بالمعانى الجديدة واتساقها مع مولدات الفكر الحديث .

على أن فى مصنفات الفنون والعلوم الرياضية والادبية والفلسفية والقانونية ذخيرة لغوية كانت هى القوام الاساسى للتفاهم بين العلماء والتعبير عن أعمق النظريات الفنية يوم كانت الحضارة العربية فى عنفوان ازدهارها ويكفى أن تتصفح كتابا علميا أو فلسفيا لتدرك مدى هذه القوة وتلك السعة الخارقة . ففى العربية اذن «مقدرات» شاسعة لا يتوقف حسن استغلالها الا على مدى ضلاعتنا فى فقه اللغة .

والكل يعلم أنه منذ أواخر القرن الهجرى الاول انبثقت حركة فكرية واسعة أذكت جامعات الشرق، ولم تستفد من هذه الحركة ـ كما يقول مؤلف «المعجزة العربية» ـ السريانية ولا الفارسية ولا اليونانية وانما استفاد منها شعب عاش لحد ذلك التاريخ خارج حدود العالم المتمدن ولم يكن فى الظاهر ما يحدوه الى الاضطلاع بالدور الخطير الذى قام به مع ذلك فى تاريخ الحضارة وهذا الشعب هو الشعب العربى .»

كانت العربية لغة أدب وشعر منذ أعرق عصور الجاهلية ولكن سرعة انتشارها ترجع فى نظر م. فنتيجو مؤلف «المعجزة العربية» ـ الى الثمار المادية والروحية التى جنتها من الاسلام أكثر منها الى القرار الذى اتخذه الامويون بجعل العربية اجبارية فى الوثائق الرسمية وخلال القرن الثانى الهجرى بدأ انحلال مراكز الثقافة اليونانية فى الشرق الادنى « وتمخض هذا الانحلال عن «أكبر فوضى فى اللغات والاديان» فقد بدأت شعوب عريقة فى الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل من تراثها الخاص لتعتنق على اثر احتكاكها بالعرب «معتقداتهم واعرافهم وعوائدهم» .

ومنذ ذلك العهد ظهرت شعوب أخرى خلفت العرب فى النواحى التى احتلتها «ولكن نفوذ اتباع محمد ظل لازبا لم يتغير» كما يقول جورج ريفوار ففى جميع نواحى افريقيا وآسيا التى دخلوها من المغرب الى الهند تغلغل ذلك النفوذ فى الاعماق الى الابد ولم يستطع فاتحون جدد استقصاء دين العرب ولغتهم» وقد اكد م. فنتيجو أن العربية أمست فى فارس اللغة الرسمية واتخذها الشعراء أنفسهم أداة لصياغة القريض فى حين ظلت اللهجة البهلوية مستعملة فى الجبل وقد استمر نفوذ العربية فى القرون التالية بل صارت العنصر الجوهرى فى الاوردية التى هى لغة الثقافة عند الهندوس والتى يعتبر نصف مفرداتها تقريبا من أصل عربى واذا كان شعراء مثل الفردوسى صاحب الشاهنامة الذى هو عند

الفرس بمثابة هو ميروس عنـــد الاغريق والذى كـان متضلعا فى العربية «عادوا يقرضون الشعر منـذ القرن العاشر الميلادى بالفارسية» فان معظم المصنفات العلمية ظلت تحرر بالعربية مثل موسوعة الرازى الطبية وغالب مؤلفات ابن سينا .

وقد اوضح كوستاف لوبـون فى كتـــابه «حضارة العرب» (الطبعة الفرنسية ص 473) أن العربية أصبحت اللغة العالمية فى جميع الاقطار التى دخلها العرب حيث خلفت تماما اللهجات التى كـانت مستعملة فى تلـــك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطيـة والبربرية ... ووقع نفس الحادث كذلك فى فارس مدة طويلة ورغـم انبعاث الفارسية بقيت العربية لغة جميع المثقفين وقد أكد جوستاف أيضا (ص 374) بان الفـــرس يدرسون اليوم (أى أواخر القرن التاسع عشر) العلوم والدينيات والتاريخ فى مصنفات عربية .

هذا وقد عربت أهـم المصنفات اليونانية فى عهـــد الخلفاء العباسيين حيث انكب العرب على دراسة الآداب الاجنبية بحماس «فاق الحماس الذى أظهرته أوربا فى عهد الانبعاث» وقـد خضعت اللغـــة العربية لمقتضيات الاصلاح الجديـــد فانتشرت فى مجموع انحـــاء آسيا واستأصلت نهائيا اللهجات القديمة (جورج ريفوار فى كتابه «وجوه الاسلام») وقد قضت العـــربية حتى على اللاتينية لا سيما فى شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والاندلس) حيث ندد الكاتب المسيحى الفارو وهو من رجال القرن التاسع الميلادى بجهل مواطنيه باللاتينية فقال : «ان المسيحيين يتملون بقراءة القصائد وروائـع الخيال العربية ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين لا بقصد تفنيدها بل من أجـل التمـرن على الاسلـوب الصحيح الانيق فى العربية وجميع الفتيان المسيحيين المبرزين لا يعرفون سوى اللغة العربية والادب العربى فهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بكـامل الحرارة ويتهافتون على اقتناء المكاتب الضخمة مهما كلفهم ذلك من ثمن ويعلنون على الملأ حيثما وجدوا ان الادب العـــربى شىء بديع ... ما أعظم الالم ! لقـــد نسى المسيحيون حتى لغتهم الدينية ولا تكاد تجد واحدا بين الالف يحسن تحرير رسالة باللاتينية الى صديق لـه . أمـــا باللغة العربية فانك تجد افواجا من الناس يحذقون التعبـير بهذه اللغة بكامل الاناقة بل انهم يقرضون من الشعر ما يفوق من الوجهة الفنية اشعار العرب أنفسهم وقد نقل الاستاذ ليفى بروفنصل مقتطفات من كتـاب الفارو فى كتابه حول «حضارة العرب فى اسبانيا» .

وقد أكد المؤرخ دوزى فى كتابه « تـــاريخ مسلمى اسبانيا » (ج 1 ص 317) أن أهل الذوق مـن الاسبان بهرتهم نصاعة الادب العربى واحتقروا البلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين » .

وقد نقل دوزى عن صاحب كتاب «الوسى مـــوزار أيبس دوطوليد» ان العربية ظلت أداة الثقافة والفكـر فى اسبانيا الى عام 1570 ففى ناحية بلنسية استعملت بعض القرى الاسبانية العربية كلغة لها الى أوائل القرن التاسع عشر وقد جمع أحد أساتذة كليـة مدريد 1151 عقدا فى موضوع البيـــوع محررا بالعربية كنمـــوذج للعقود التى كان الاسبان يستعملونها فى الاندلس » .

ولم يفت المؤرخ «فياردو» الذى كتب منذ نحو القرن تاريخ العرب فى اسبانيا أن ينوه بثراء اللغـة العربية الخارق وشاعرية العرب الفياضة حتى ان معظم سكان شلب – وهى اليوم جنة البرتغال – كانوا شعراء فـى نظر القزوينى بل يؤكد دوزى انهم كلهم كانوا شعراء .

ان اللغة العربية التى بلغت مبلغا كبيرا من المرونـة والثروة فى العهد الجاهلى أدركت فى القرن الـــرابع الهجرى اى فى عنفوان العصـر العباسى أوج كمالهـا وقد وصف زكى مبارك روعة النثر الفنى العربى فـى هذا القرن ووصف فيكتور بيرار اللغة العربية فى ذلك العصر بانها أغنى وأبسط وأقوى وأرق وأمتن وأكثـر اللهجات الانسانية مرونة وروعة فهى كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيـــق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير » وأعجب مـــا فى الامر – وهو شىء لا نظير له عند الشعوب الاخـــرى – أن البدو كانوا هم سدنة هذه الذخائر «وجهابذة النثـــر العربى جبلة وطبعا» ومنهم استمد كل الشعراء ثراءهم اللغوى وعبقريتهم فى القريض .

ان نفوذ اللغة العربية أصبح بعيـد المدى حتى ان جانبا من اوربا الجنوبية أيقن بأن العربيـة هى «الاداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب » كما يقول جورج ريفوار الذى أوضح أيضا ان رجال الكنيسة اضطروا الى تعريب مجموعاتهم القانونية لتسهيـل قراءتها فى الكنـائس الاسبانية وان «جان سيفيل» وجد نفسه مضطرا الى أن يحرر بالعربية معـارض الكتب المقـدسة ليفهمهـا

الناس . (I)

أما فى فرنسا فقد أكد جوستاف لوبون فى حضارة العرب (ص 174) انللعربية اثارة مهمة فىفرنسا نفسها وقد لاحظ المؤرخ «سديو» عن حق ان لهجة ناحيتي اوفيرنى وليموزان زاخرة بالالفاظ العربية وان الاعلام تتسم فى كل مكان بالطابع العربى .

وكان من الطبيعى ان يزود العرب الذين كانوا قادة المتوسط منذ القرن الثامن الميلادى ـ كلا من فرنسا وايطاليا بمعظم مصطلحاتها البحرية على أنهـا تركت اثرها فى مصطلحات الجيش والادارة والصيد والعلوم وغيرهـا .

وقد لوحظ نفس التأثير فى صقلية حيث كان الملك روجير النرمندى يتسربل بالازياء الشرقية ويرقم جبته الرسمية بالحروف العربية وكان كل من خاتمه ونقوده يحمل الكتابة العربية والنرماندية وقد كان اميرال صقلية متضلعا فى العربية وبالجملة «فقد صارت العربية ـ كما يقول الاستاذ فنتيجو ـ لغة دولية للتجارة والعلوم» .

أما نسبة هذا التأثير فقد ذكـر بعض الباحثين ان المفردات العربية التى دخلت الى الاسبانية تقدر بربع محتويات القاموس الاسبانى بينما دخلت الى البرتغالية ثلاثة آلاف كلمة عربية وقد صنف الاب ساسا باتيستا الذى ولد فى دمشق من أبوين عربيين قاموسا عام 1789 جمع فيه الكلمات التى اقتبسها البرتغال مـن العربية وهذا القاموس يقع فى مائة وستين صحيفة كما ألـف دوزى وانجلمان قاموسا للكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية وتوجد فى مكتبة الاسكوريال معاجم عربية يونانية وعربية لاتينية وعربية اسبانية صنفهـا علماء مسلمون (حضارة العرب ص 166ـ474) وقد كان للمغرب حظه فى هذا التأثير اللغوى على الاندلس الذى استمر حكمه لها نحوا من ثلاثة قرون أما البرتغاليـون الذين عاشوا فى المغرب فقد ذكر شافروبير فى كتابـه عن تاريخ المغرب (ص 273) ان الجالية التى كـانت بالمغرب فى القرن السادس عشر كانت تتراسل بعربية حشوها تعابير مغربية وتكتب مـراسلاتها بالحـروف العـربية .

وهناك لغات أخرى كالمالطية اقتبست معظم مفرداتها من العربية وقد أمكن استماعنا فى السنوات الاخـيرة لخطاب فاهت به شخصية مالطية رسمية لم يعسر فهمه على المستمعين لاسيما وان اللهجة المالطية تتجانس مع لهجات المغرب العربى ومعلوم أن الكثير مـن اللهجات تتقارب فى العالم العربى نظرا لانتسابها جميعا الى اللغة البونيفية كما يتجلى ذلك من دراسة الكتابات التى عثر عليها فى البرازيل (2) وقـد أكد جوستاف لوبـون (ص 472) «ان العربية من اكثر اللغـات انسجاما فهى وان كانت تحتوى على عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والجزائرية غير أن هذه اللهجات لا تختلـف فيما بينها الا بفوارق جد طفيفة بينما نلاحظ أن سكان قرية فى شمال فرنسا لا يفهمون كلمة مـن اللهجـات المستعملة فى قرى الجنوب نرى سكان شمالى المغـرب الاقصى يتفاهمون بسهولة مع سكـان مصر والحجاز » وقد قال الرحالة بوركارد بأن كل من عرف احدى هذه اللهجات فهم سائرها بدون عنا» .

وقد استكشفت فى صقلية لوحـة مسيحية محررة بالعربية ومؤرخة بالتاريخ الهجرى بعد انتهاء الاحتلال العربى بستين سنة .

واللغة الافريقية نفسها اقتبست الشىء الكثير مـن العربية غير ان المقتبسات اتخذت شكلية يعسر معهـا ارجاعها الى الاصل العربى .

ومعلوم ان الجامعة الاوربية كانت عاملا مهمـا فى ذيوع اللغـة العربية الـتى أصبحت فى العصـور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون بل أصبحت لغة دولية للحضارة ففى عام 1207 م. لوحظ وجود معهد فى جنـوب أوربا لتعليم اللغة العربية ثـم نظم المجمع المسيحى العالمى بعد ذلـك تعليمها فـى اوربا وذلك باحداث كراسى فى كبـريات الجامعـات الغربية وفى القرن السابع عشر اهتمت اوربا الشمالية والشرقية اهتماما خاصا بتدريس اللغة العربية ونشرها ففى 1636 قررت حكومة السويد تعليـم العربيـة فى بلادها ومنذ ذلك انصرفت السويد الى طبـع ونشر المصنفات الاسلامية وبدأت روسيا تعتنـى بالدراسات

(I) منذ القرن العاشر الميلادى تبنى اليهود لغـة الفاتحين العرب كلغة علمية فى افريقيا وغيرها ويجدر أن نذكر الحبر يهودا بن قريش لما يمتاز به كتابه فىفقه اللغة المقارن والذى وجهه فى ذلك العهد الى بيعـة فاس (كودار ص 454) .

(2) **راجع بحثـا فى العدد الثـانى مـن مجلـة « اللسان العربى » .**

الشرقية والعربية على الخصوص فى عهد البطرس الاكبر الذى وجه الى الشرق خمسة من الطلبة الروسيين وفى عام 1769 قررت الملكة كاترينا اجبارية اللغة العربيـــة وفى عام 1816 أحدث قسم اللغات السامية فى جامعـة بتروكراد .

وقد اتجه اقتباس اوربا من العربية نحـــو الميدان العلمى فدخلت الى اللغات الاوربية كثير من المصطلحات العربية مثل الكحول والاكسير والجبر واللوغريتم وقد استمد الاسبان ـ حسب ليفى بروفنصال ـ معظم أسماء الرياحين والازهار مـــن العربية ومن جبـال البرانس انتقلت مصطلحات العلـوم الطبيعية الى فرنسا مثـــل البرقوق والياســمين والقطن والزعفـــران ومجموعـة مصطلحات الرى تقريبا هى كذلك من أصل عربى كمـا تحمل الحلى فى اسبانيا أسمـاء عربيـــة ويتجلى نفس التأثير فى الهندسة المعمارية وبالجملة فقـــد استمدت اسبانيا وبواسطتها أمريكا اللاتينية من اللغة العربيـة الشىء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقـــافيا واقتصاديا واجتماعيـا .

وقد لاحظ عالم ايطالى كبير أن معظم التعابير العربية التى تغلغلت بكيفية مدهشة فى لغة روما لم تنتقـل عن طريق التوسع الاستعمارى ولكن بفضل اشعاع الاسلام الثقـــافى .

بل ان الاصلاح الخاص بالكنيسة تأثر الى حد بعيد بالطابع العربى فقد اعترف البارون كارادوفو مـــؤلف «مفكرو الاسلام» وهو مسيحى متحمس بأن الاسلام علم المسيحية منهاجا فى التفكير الفلسفى هو ثمرة عبقرية أبنائه الطبيعية وأن مفكرى الاسلام نظموا لغة الفلسفة الكلامية التى استعملتها المسيحية فاستطاعت بذلـك استكمال عقيدتها جوهرا وتعبيرا وهذه ظاهرة لاسيما اذا اعتبرنا ـ مع مؤلف «وجوه الاسلام» ـ مدى مساهمـة الفلسفة الاسلامية فى تكوين علم الكـلام خلال القرون الوسطى والدور الذى قام به فى ذلك كل من ابن سينا وابن رشد وما كان لهما من تأثـــر على أشهر مفكـرى المسيحيـة .

واذا كان قد قدر للعرب أن يقوموا بدور ما فى عصر الجاهلية فانما كان ذلك عن طريق اللغـة التى كانت أنصع عنصر فى حياة العرب وقد دعـــا فولفنسن فـى كتابه «تاريخ اللغات السامية» المشارقة المتكلمين بلغـة الضاد الى درس فقه اللغات السامية للاقتناع بعظمـــة أجدادهم وبالدور الذى قاموا به فى حضارة العالـــم القديم» ثم أكد ان المستشرقين الذين ندبوا بالعروبـة والاشعاع العربى لـــم يهدفوا الا لغـــايات دينيـــة واستعمارية .

وقد عبر الاستاذ ماسينيون عن نفس الفكرة قائلا : ان المنهاج العلمى قد انطلق اول ما انطلـــق باللغة العربية ومن خلال العربية فى الحضارة الاوربية .»

ثم قال : «ان العربية استطاعت بقيمتها الجدليـــة والنفسية والصوفية أن تضفى سربـــال الفتـــوة على التفكير الغربى كما انعشت «ألف ليلة وليلة» فى القرن السابع عشر الميلادى ذهنية أوربا التى اتخمتها أساطير الاغريق والرومان » .

ثم يواصل ماسينيون وصفه الرائع قائلا : ان اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكـــر فى الميـدان الدولى وان استمرار حياة اللغـــة العربية دوليا لهـو العنصر الجوهرى للسلام بين الامم فى المستقبل .

مديـر المجلة

عبد العزيز بنعبد الله